# حركة عدم الانحياز: هل بقى لها من دور..؟

محمد يوسف عدس

كان لحركة عدم الانحياز دور هامٌّ وفاعلٌ فى زمنها الأول، عندما كان العالم منقسما إلى مُعسْكَريْنِ مُنْخَرِطيْن فى حرب باردة.. وقد حرص كل معسكرعلى استقطاب شعوب العالم إلى صفّه: الغرب بقيادة أمريكا من ناحية، والاتحاد السوفييتي من ناحية أخرى.. ورغم ذلك المناخ الاستقطابي الشرس، استطاعت حركة عدم الانحياز أن تساعد الدول الضعيفة على تحقيق استقلالها وتحرّرها من الاستعمار.. ولكن أمريكا لم تكن لتسمح بوجود كتلة عالمية كبرى -تضم ما يقرب من ١٢٠ دولة- أن تعمل مستقلّة عن سيطرتها.. ومن ثَمَّ استغلّت حاجتها إلى المال و التكنولوجيا فى التنمية، لتفرض التبعية عليها؛ بالخديعة تارة، وبالمؤامرات والتدخل العسكري المباشر وغير المباشر تارة أخرى..

وقد تحولت بالفعل حركة عدم الانحياز إلى كتلة هلامية: فقدت فاعليتها وأصبحت عاجزة عن التأثير فى محيطها الإقليمى و العالمي .. وأصبحت اجتماعاتها مجرّد مَكْلَمَة تُناقش فيها قضايا، وتصدر عنها توصيات عديمة الفاعلية.. كما هو الحال بالنسبة للجامعة العربية، وغيرها من المنظمات فى العالم الثالث؛ أسماء كبيرة وقرارات رنّانة إعلاميًّا، ولكنها فارغة من المضمون، لا يُقصد بها أن تنفّذ..

يجب أن نلفت النظر هنا إلى أن شعوب هذه الحركة يمثلون أكثر من نصف سكان العالم ، ويملكون فى أراضيهم ما يزيد عن ٨٠% من مصادر النفط العالمية، و وما يقرب من ٥٢% من الموارد المائية، وتمثل دولها كتلة تصويتية هائلة في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، يمكن بتفعيلها أن تنتصر لقضايا جوهرية مثل حق الشعب الفلسطينى فى استعادة أرضه من الاحتلال الصهيوني، وإقامة دولته المستقلة..

كان دور هذه الحركة مفهوما فى زمن الحرب الباردة، وانقسام العالم إلى كتلتين شرقية وغربية يُخشى من تصادمهما بالأسلحة النووية التى يملكانها، فتنتهى الحياة على هذا الكوكب الأرضي.. وقد رأى الآباء المؤسسون لحركة عدم الانحياز أن تكون دول هذه الحركة -وهى تشغل مساحة هائلة من الكرة الأرضية- فاصلا بين المعسكرين، يمنع الاحتكاك المباشر بينهما، مما يقلل من فرص انطلاق شرارة حرب كونية مدمّرة، ومن ناحية أخرى تتفرّغ دول عدم الانحياز لتطوير شعوبها وتنمية مواردها بالتعاون فيما بينها ، مستفيدةً من التدافع السلمي بين طرفي الحرب الباردة، فى اكتساب ما لديهما من تقدمات تقنية واقتصادية..

الآن وقد انتهى عصر الحرب الباردة.. يرتفع السؤال: هل بقى لحركة عدم الانحياز من دور حقيقي..؟ وهل هو دورمطلوب وممكن أداؤه.. ولا يمكن الاستغناء عنه..؟ أعتقد أن هذا السؤال قد أجاب عليه الرئيس المصري محمد مرسى أبلغ إجابة، فى خطابه أمام قمة عدم الانحياز بطهران يوم الخميس ٣٠ أغسطس ٢٠١٢م ، حيث بشّر بهذا الدور وأكّده أمام القمة ببساطة ووضوح..

لن أتحدث مفصّلًا عن الخطاب الذى ألقاه الرئيس المصرى فى قمة عدم الانحياز، فهو واضح بذاته، قوي فى مغزاه ودلالاته.. وقد أشبعه طائفة من الكُتّابِ تحليلا وتقريظا من ناحية، وطائفة أخرى قد أهمّتْهم أنفسهم وانحسرت رُؤاهم فى انتماءاتهم الحزبية، فأعْمتهم عن رؤية الحقيقة، وأزعجهم –بصفة خاصة- أن يُحسب هذا فى رصيد الرئيس، الذى يتربصون به الدوائر، ويتمنّون له الفشل، لمجرد أنه ينتمى لتيار إسلامي يكرهون صعوده، ويكرهون أن ينجح، وأن يتم على يديه –بالذات- تحقيق أهداف الثورة وإصلاح الحال فى مصر. وقد صوّرت لهم أحقادُهم الحزبية والعَقَدِيَّةِ أن نجاح هذا الرئيس يعتبر خَصْمًا من رصيدهم عند الشعب، وتقليلا من شأنهم و قيمتهم..

أكثرالناقدين نعومة وصفوا الخطاب بأنه خطاب غير دبلماسي، وآخرون قالوا إنه مجرد خطاب كغيره مما سمعناه من رؤساء سابقين، وأضافوا: "إننا رأينا كيف يقول الرؤساء شيئا فى خطابهم ويفعلون شيئا آخر..!" ثم تأتى فئة ثالثة من الكُتّاب ليسخروا من الخطاب؛ لأنه يقحم الأخلاق فى السياسة.. والسياسة –كما تعلّموها فى كتبهم- قائمة على المصالح فقط ولا علاقة لها بالأخلاق.. وقد تثبّتت هذه المقولة النمطية فى عقولهم، بمسامير العادة والتكرار والبرمجة الذاتية، على مدى السنين.. حتى أُشْرِبوها، كما أُشْرِبَتْ طائفة من البشر "العِجْلَ": بالاعتياد والتقديس.. حتى خلُص إلى قلوبهم .. "والحب" كما يقول الشاعر العربي "يشربه فؤادُك داءُ"..

دع عنك كل أولئك وهؤلاء، فقد تجاوزهم الزمن، وتجاوزهم الواقع الثوري الجديد، الذى عبّر عنه محمد مرسى فى خطابه المشهود، عندما تحدث عن الواجب الأخلاقي للدول، مقرونا بالضرورة السياسية، فى معالجة المجازر الوحشية التى يتعرض لها الشعب السوري تحت نظام قمعي فاقد للشرعية، والتى يتعرض لها الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال الإسرائيلي .. فى تأكيد وإصرار وحثٍّ واضح الدلالة على عزيمة جديدة، ورُؤية ثورية جديدة.. أثق بأن محمد مرسى يقصدها، ويعمل على إقناع قادة دول عدم الانحياز بتبنّيها، فى محاولةٍ لإحياء وتفعيل دور هذه الحركة.. الذى غاب منذ وفاة رُوّاده الأوائل: نهرو وعبد الناصر وتيتو..

دول عدم الانحياز تقع كلها فى نطاق الدول النامية، لذلك يلفت الرئيس المصري أنظار قادة هذه الدول إلى ضرورة التعاون للنهوض، و للتخلص من الفقر الذى تعانيه الدول النامية، وأهمية هذا الخطاب أنه يأتى فى وقت تحقَّقَ فيه الجميع أن وعود أمريكا بالمساعدات والتنمية كانت وعودا خادعة، استفاد منها الطرف الأمريكي وحده فى جميع الاتفاقات الثنائية الى عُقدت مع دول أفريقيا بصفة خاصة، كما تحقق فيه الجميع من فشل مشروعات التنمية التى موّلها وأشرف عليها البنك والصندوق الدوليين..

وكانت نتيجة هذا أن تفاقمت مشكلات هذه الدول الاجتماعية والمعيشية، وتدهورت الخدمات فيها تدهورا خطيرا فى الصحة والتعليم والمرافق.. وتُركت شعوبها فى العراء لتعانى من الجوع والفقر، ولتغوص فى مستنقع الديون المتزايدة، وفوائدها الباهظة التى عجزت عن تسديد أقساطها السنوية، لأنها فاقت دخلها الوطني بأكمله.. فى الوقت الذى استطاعت دول مثل المكسيك وتركيا وماليزيا وجنوب أفريقيا أن تنجو من روشتة البنك الدولي وشروطه المجحفة المدمّرة، وتبنى إقتصاديات ناجحة بدون التورط فى ديون البنك الدولي..

هذا نموذج جديد من التجربة العملية لدولٍ استطاعت أن تحقق درجات عالية من التقدم والتنمية، تستحق الدراسة والاحتذاء بعيدا عن هيمنة القوى الإمبريالية، بعيدا عن المؤسسات الدولية المسخّرة لخدمة المصالح الإمبريالية..

تتشدق أمريكا والدول الغربية بالديمقراطية فى إدارة بلادها، ولكنها لا تعبأ بالديمقراطية فى إدارة الشئون الدولية.. بل تكرّس اللّاديمقراطية فيها، وأبرز مثل على هذا تشكيل مجلس الأمن الدولي، الذى يعطى حق الفيتو لخمس دول كبرى دون بقية دول العالم، وقد ترتب على هذا الوضع أن دولة مثل إسرائيل ترتكب ما تشاء من انتهاكات وجرائم فى الأراضى الفلسطينية وبحق الشعب الفلسطينى، ولا تعبأ بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة، لأن أمريكا تحميها بحق الفيتو، الذى تمارسه ضد أي إدانة تصدر من مجلس الأمن ، وأصبح مجلس الأمن -بسبب هذا- عاجزا عن التصدى للمشكلات الدولية الخطيرة التى يُنتهك فيها السلم والأمن، عاجزا عن التدخل لوقف حمامات الدم التى تسيل أنهارا فى سوريا على يد سفاح يحكمها بلا إرادة من شعبه، والسبب أن دولة أو اثنتين لهما مصالح فى سوريا ، يستخدمان حق الفيتو لشل مجلس الأمن عن التدخل..

وقد أشار الرئيس المصري فى خطابه إلى هذا الوضع الشاذ، ودعا إلى ضرورة إعادة هيكلة مجلس الأمن على أسس ديمقراطية.. وإلغاء حق الفيتو.. وتوسيع نطاق المشاركة الدولية فى قرارات هذا المجلس.

لست أزعم أن هذا النقد للنظام الدولي من اختراع محمد مرسي؛ فقد تردد كثيرا فى كتابات المفكرين من قبله، ولكن ترجع أهميته أولا: إلى إنطلاقه من مصر الثورة، التى أخذت بزمام مصيرها بيدها، بعد حقبة من الضعف والغياب والتبعية.. وثانيا: لأنه ينطلق فى ظروف إقليمية ودولية مواتية؛ فأنا على يقين أن الظروف العالمية الراهنة تتيح الفرصة لتغييرات جوهرية فى بنية النظام العالمي، بحيث تجد فيه الشعوب الصغيرة مكانا للمشاركة فى قراراته، وتحقق فيه طموحاتها فى التنمية، دون التضحية بسيادتها وكرامتها، ودون الحاجة للسقوط فى براثن الديون المهلكة، والتبعية المُذِلّة.. من أبرز هذه الظروف وأهمها نؤكّد على حقيقتين:

تتمثل الأولى فى إنطلاق الربيع العربي وتصاعده، ونجاح الثورة المصرية بالذات، فهذا من شأنه أن يساهم فى تفعيل حركة عدم الانحياز، لتنهض بدورها فى الضغط على القوى الكبرى، لتغيير الأسس الاستبدادية المهيمنة على هذا النظام..

والحقيقة الثانية: أن الولايات المتحدة الأمريكية قد فقدت مصداقيتها الأخلاقية فى العالم، كما بدأت تفقد سيطرتها الشاملة على الكرة الأرضية، بسبب فشلها فى الحربين الأفغانية والعراقية، من جهة.. وبسبب عجزها فى مواجهة الأزمة الاقتصادية التى تأخذ بخناقها.. ولا تجد لها حلًّا ممكنا، سوى طبع دولارات ورقية، وضخِّها فى البنوك.. فالأزمة تتفاقم وتستفحل، ويترتب عليها تدهور متزايد فى أمريكا.. ويكفى أن نعلم أن أمريكا تعانى من عجز متواصل فى ميزانياتها، وأن ديونها العامة تزيد الآن عن خمسة عشر تريليون دولار.. وأن آثار هذا التدهور الاقتصادي تبدو كارثية، إذا تأمّلنا فى إحصائيات البطالة المتزايدة وإفلاس الشركات وإغلاق المصانع وتسريح العمال وعجز أبناء الطبقة المتوسطة عن تسديد أقساط ديونهم، إلى درجة أن مئات الألوف من الأسر شُرِّدت من بيوتها..

من دلالات هذا التدهور أن أمريكا قد أصبحت عاجزة عن مدّ سيطرتها أبعد مما فعلت؛ فبسقوط "المشروع الأمريكي للقرن الواحد والعشرين" خفتت شعارات العولمة، واقتصاديات السوق.. ولم نعد نسمع التصريحات الاستعلائية مثل: الفوضى الخلّاقة.. ومشروع الشرق الأوسط الكبير.. كل هذا اندثر وأصبح مجرد تاريخ يُحْكَى عن أمبراطورية عجوز آخذة فى الانهيار..

لا تخدعك إذنْ مظاهر التغلغل الأمريكي فى مصر، فتعتقد أن أمريكا ما تزال بقوتها التى كانت عليها فى بداية عهد بوش الصغير.. فإن ماتراه مجرد بقايا لقصة قديمة توشك أن تطوى صفحتها الأخيرة: قصة التبعية المخزية لنظام باع نفسه وشعبه لأمريكا، وأفرز قدرا هائلا من الفساد، وتوالدت فيه أجيال من العملاء فاقدى

**الضمير والانتماء الوطني، صنعوا لأنفسهم إمبراطورية سياسية وإعلامية على أشلاء شعب مقهور..**

**تحطمت هذه المعادلة بثورة الشعب فى يناير ٢٠١١ – وتتهاوى الآن أركان هذه الإمبراطورية الجوفاء، ويتساقط رجالها واحدا بعد الآخر، الكبار قبل الصغار، كأنهم فقاعات تسمع أصواتها عندما تنفجر، ثم لا تلبس أن تتلاشى فى الهواء كأنها لم تكن.. كانوا فى صخبهم يستندون إلى دعم المجلس العسكرى، فلما تهاوى فى لحظة قَدَرِيِّة، خَفَتَ الصخب.. وكان المجلس العسكري بدوره يستند إلى أمريكا.. حسبة خاطِئَةً..! فقد تبين أن الهيمنة الأمريكية ليست إلا فقاعة كبرى تضخّمت فى عقولٍ مترهّلة .. بحكم الضعف والخور فى القلوب والأفئدة..**

**وهذا بالضبط ما أريد أن أنبّه إليه وهو: أن محمد مرسي –فيما أنجزه حتى الأن- قد لا يكون عبقريا، وقد لا يكون متمتّعا بكاريزما مظهرية؛ فهو –رغم علمه- رجل بسيط لا يستنكف أن يضع جبهته فى الصلاة ساجدا على بقعة من أرض المسجد، وطأتْها قبله أقدام المئات من المصلين.. أحسبه واحدًا من أولئك الذين يؤمنون بأن الأيام دول بين الناس، وأن تغيير الحال ليس من المُحال، وإنما هو أمر خاضع لأسباب يهيّئها رب العزة، لتأتى فى حينها حيث يشاء.. لقد جاء هذا الرجل من خلفية جماعة كانت محظورة عقودا من الزمن، تم فيه إقصاؤها وتهميشها واضطهادها وتشويه مقاصدها وأهدافها.. وهو نفسه خرج من المعتقل ليواجه قدَرَهُ ومسئوليته فى قيادة هذه الأمة..**

**مثل هذا الرجل البسيط مؤهل -فى تصورى- لأَنْ يبعث الحياة والثورة فى حركة عدم الانحياز، و لا أستبعد أن يقودها لتحقيق أهداف جديدة لم تكن لتخطر على بال أحد من الناس، الذين ظنوا أن هذه الحركة قد ماتت وانتهى زمانها.. إننى أعتقد مع بعض المفكرين أن التاريخ لاتصنعه الحقائق الموضوعية، بقدر ما يصنعه رجال متميزون بالجسارة والإيمان وقوة الفكر والعزيمة، فهم الذين يصنعون الحقائق الموضوعية، ولا تصنعهم الحقائق الموضوعية..**